

ظهور المؤسسات الصلاحية التابعة للأيوبيين (المدارس والخانقاهات) في بلاد الشام ومصر

عليرضا أشتري تفرشي*

فاطمه أحمدوند**

الملخص

يقدم هذا البحث تقريراً تاريخياً وصفيّاً تم الحصول عليه من مصادر مباشرة وبعض الأبحاث التاريخية حول أربعة مؤسسات تعليمية ودينية أسسها صلاح الدين الأيوبي (توفي عام ٥٨٩ هـ)، مؤسس حكومة الأيوبيين، وهما مدرستان وخانقاهها صلاحية في مدينتي القدس والقاهرة. تسعى هذه الدراسة من خلال المنهج التحليلي إلى تقديم تحليل سردي لهذه الظاهرة التاريخية لمعرفة دوافع إنشاء هذه المؤسسات، تماشياً مع السياسات الثقافية والدينية لمؤسسها أو الآثار الحتمية للتطورات التاريخية. وهكذا فقد قمنا بدراسة العوامل السياسية مثل السعي لتحقيق الشرعية السياسية، والعوامل الدينية بما فيها الجهود المبذولة لتعميم أفكار الأشاعرة والقضاء على الأفكار المنافسة، والعوامل الجهادية التي تؤثر على خلق الدوافع الجهادية ضد الصليبيين، والعوامل العملية التي تتمثل في محاولة تكييف

* أستاذ مساعد في قسم تاريخ التشيع، جامعة حكيم سيزواري، سيزوار، إيران (الكاتب المسؤول)،

a.tafreshi@hsu.ac.ir

** أستاذة مساعدة في قسم التاريخ وحضارة الأمم الإسلامية، جامعة الإمام الخميني الدولية، قزوین، إيران،

ahmadvand@ISR.ikiu.ac.ir

تاريخ الوصول: ١٣٩٨/٠٨/٠٤، تاريخ القبول: ١٣٩٨/١١/١٧

ظاهرة مؤسسات الصلاحية مع عملية الشرق إلى الغرب ونشر الظواهر الحضارية للمدرسة والخانقاه والظواهر الثقافية للحياة المدرسية والخانقاهية.

الكلمات الرئيسية: صلاحية، المدرسة، الخانقاه، نظرية البث، العصر الأيوبي.

١. المقدمة

طالما كانت السياسة والثقافة من أهم مجالات الحضارة الإسلامية خلال التاريخ. في كالمجالين، حدثت تطورات حاسمة في مختلف العصور، وكان أحد أهم جوانب الحضارة الإسلامية هو تخليق العلاقة بين هذين المجالين ودورها في توليد الظواهر السياسية والثقافية وتطوراتها الواسعة. في هذه الأثناء، يكون لكل من السياسة والثقافة مكونات مختلفة؛ الشرعية والسلطة السياسية والدين والمذهب والمجتمع وخصائص العملية، مع انتقال عنصر ثقافي من نقطة مكانية مؤقتة إلى نقطة أخرى في مجال الثقافة، تعتبر جميعها من بين هذه المكونات.

ومن الظواهر السياسية والثقافية المعروفة في الحضارة الإسلامية يمكننا الإشارة إلى نظام التعليم الرسمي الذي شهد تطورات واسعة ومتنوعة في مراحل الحضارة الإسلامية. وتعد فوائده التكامل السياسي للحضارة الإسلامية من بين السمات المهمة لهذه الظاهرة، أي المناطق التي كانت لها أنماط سياسية ثقافية متميزة في عصر ما قبل الإسلام، فأصبحت خلال العهد الإسلامي ذات ظواهر ثقافية متجانسة إلى جانب التكامل السياسي أو التشابه الهيكلي للأنظمة، مع النظر في الاختلافات الزمنية والمكانية باعتبارها وظيفة للسياسات الثقافية المنسجمة.

قام الخبراء في مجال التاريخ الثقافي للعالم الإسلامي بتقسيم المؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي إلى فئتين هما الشخصية والسياسية، مع التركيز على المدارس والتي تعتبر الأكثر شهرة (Makdisi, 1981: 297). في مجال المدارس الحكومية، يعتبر هؤلاء العلماء أن المدارس العسكرية هي النقطة المحورية لتدفق الحضارة الإسلامية، حيث وضعت أهم أنماط هيكل هذه المؤسسات وإدارتها في العالم الإسلامي، وبالتالي فقد اقتدت بها معظم المدارس في العالم الإسلامي (غنيمة، ١٣٧٧ش: ١١٢-١١٤؛ انظر أيضاً: كسابي، مقدمة ٢٧-٢٩؛

حقيقي، «بررسی کتابخانه های مدارس و دانشگاه های قلمرو تمدن اسلامی و مقایسه آنها با کتابخانه های دانشگاهی اروپا در قرون وسطی»، مشكوه، صيف ١٩٩٥م، العدد ٤٧، ٥٢؛ اميرى، «سياسة خواجه نظام الملك در تاسيس مدارس نظاميه»، تاريخ پژوهشى، خريف ٢٠١٣م، العدد ٥٦، ص ١، ٣، ٦، ١١، ١٢، ١٣. نظراً لأن هؤلاء العلماء لم يقوموا بدراسة أنماط ما بعد المدارس النظامية إلا بشكل أقل، فإن مثل هذه الدراسات للمؤسسات مثل مدارس وخانقاهات الصلاحية في عهد الأيوبيين قد تكون مفيدة في تقديم تحليلات جديدة حول تقييم اتباع نمط المدارس النظامية في المؤسسات التعليمية اللاحقة من خلال معرفة العوامل التاريخية الجديدة. من ناحية أخرى، في عملية دراسة المؤسسات الدينية، بالإضافة إلى المدارس، نصادف أيضاً خانقاهين يحملان نفس الاسم ولهما العديد من أوجه التشابه مع المدارس الصلاحية من حيث دوافع البناء والهيكل ويعتبران مكملين لها في نظام ديني-سياسي جديد في مصر والشام. يعد الخانقاه أيضاً تابعاً للأنماط الزمنية والمكانية، مع وجود بنى ودوافع معروفة في ظهوره (عدلي، ١٣٩٢ش: ٧١٨/٢١-٧٣٤؛ أنظر: كياني، ١٣٦٩ش)، لذلك فهو يستحق التحليل المستقل.

يعد عصر الأيوبيين الذي امتد لثمانين عاماً عصباً مهماً من حيث دوره في التطورات الثقافية والدينية الأساسية في مصر والشام ومن ثم في نقل الإنجازات إلى عصر المماليك، حيث أن السياق نفسه هو سياق التاريخ الثقافي المعاصر في جزء مهم من العالم العربي والإسلامي: مصر، سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن وإلى حد ما اليمن، غرب الحجاز وجنوب تركيا. في النظام الثقافي الأيوبي، لعب عهد صلاح الدين المؤسس أيضاً دوراً استراتيجياً، ونتيجة لذلك فقد تم تقسيم المؤسسات الصلاحية إلى أربع مجموعات وهي: المدرسة الصلاحية في القدس، المدرسة الصلاحية في القرافة، خانقاه صلاحية القدس وخانقاه صلاحية القاهرة.

١.١ أسئلة البحث

الغرض الرئيس من هذه الدراسة هو إظهار العلاقة بين عنصري السياسة الكلية والثقافة في ظاهرة تاريخية، أي المؤسسات التعليمية الصلاحية أو بمعنى آخر، دراسة العوامل السياسية والدينية والجهادية والعملية المؤثرة في إنشاء هذه المؤسسات؛ وأما أسئلة البحث هي:

- ما هي العوامل السياسية والدينية والجهادية والعملية التي أدت إلى ظهور المؤسسات الصلاحية في مصر والشام؟

- بأي طريقة انتشرت ظاهرة الصلاحية (المؤسسات الصلاحية) من الشرق الإسلامي (إيران والعراق) إلى الغرب الإسلامي (مصر والشام)؟

٢.١ خلفية البحث

لا يوجد هناك أي بحث مستقل حول المؤسسات التعليمية الصلاحية حتى الآن، لا سيما مع اتباع نهج تحليلي متكامل لتحديد العوامل الكامنة وراء ظهورها. كما لا يوجد هناك أي بحث مستقل عن خاتمة الصلاحية في القاهرة. في مجال المدارس الصلاحية، كانت هناك إشارات محدودة في بحوث الشلبي (١٣٨٧: ١٠٦) وغنيمية (١٣٧٧: ١٣٢، ١٤٩)، وكان هناك أحياناً ذكر لاسمها فحسب، وأحياناً أخرى نظرة وصفية من قبل أشخاص مثل عبد المهدي وعسلي، حيث تم التركيز أكثر على السير الذاتية للشيخ والمعلمين والنقل الموضوعي للمصادر القديمة، ولم يكن هناك أي تحليل يتمحور حول التيارات (عسلي، ١٩٨١: ٣٣٠ وما بعدها؛ عبدالمهدي، ١٩٨١: ٤٠٣، ١٨١ وما بعدها). هذا التجاهل أدى إلى ظهور رواد في الدراسات المدرسية و يعتبر نورالله كسابي من أبرز الشخصيات في تاريخ الدراسات المدرسية الإسلامية في إيران، يقوم بتفسير المدارس بشكل مزدوج في الفاطميين (الإسماعيلية/ الشيعية) والسلجوقيين بمعنى أن السلجوق يحاولون مواجهة الإسماعيليين (كسابي، ١٣٧٣: ١٤٦؛ وأيضاً انظر: Makdisi, 1981: 298) ويمتنع عن تحليل العوامل الأخرى مثل العوامل الجهادية وعوامل العملية. كتاب يحمل عنوان ظهور الكليات، الذي يجمع بين آراء الإسلاميين الأوروبيين في القرن التاسع عشر والعشرين في تاريخ المدارس والخانقاهات، طرحت مسألة توسيع المؤسسات التعليمية ذات السيادة على أساس النزاعات الثقافية و السياسية المزدوجة. على سبيل المثال، اعتقد ايغناز غولدزبير أن هذه المذاهب والمؤسسات السنية (الشافعي - الأشعري) كانت معارضة لأحكام الفقه الحنبلي وكلام المعتزلة، ويعتقد فان بورخام أنهما يعارضان الإسماعيليين وكلام المعتزليين

ظهور المؤسسات الصلاحية التابعة للأيوبيين (المدارس والخانقاهات) في بلاد الشام ومصر ٣١

(305 - 297 : Makdisi, 1981) من الواضح أن أصحاب هذه النظريات يتصورون ان المؤسسات التعليمية التي تديرها الحكومة (مع التركيز علي المدرسة والخانقاهات) على أنها مجرد مؤسسات شافعية أشعرية، مما يعني أنهم رأوا المزيد من البعد الديني والعناصر الدينية ولم يلقوا نظرة شاملة على جميع العوامل.

هناك أيضاً إشارات موجزة في عمل غنيمة والشلي حول المدرسة الصلاحية في القرافة، كما يشير إليها غري ليزر في إحدى مقالاته في سياق نظرياته العامة (Leiser, Gary, "The Madrasah ...", 29-47). يوجد أيضاً مقال باللغة الإيطالية عن المدرسة الصلاحية في القدس لتاماري، يتناول فيه الجوانب المعمارية والمسيحية للمبنى القديم للمدرسة (Sh. Tamari, 1968: 327 ff). وأشارت عفاف سيد محمد صبرة في وصف موجز للغاية إلى المدرسة الصلاحية في القاهرة في مجموعة تأريخ المدارس في مصر الإسلامية. يقدم عبد العظيم رمضان، في كتابه *طريق المدارس في مصر الإسلامية*، تفسيرات وصفية موجزة للغاية في المدارس الصلاحية والتي لا تعتبر كاملة ولا وافية بتاتا من حيث المنهج الوصفي والتحليلي (رمضان، ١٩٩٣ : ٢٠٧). وبالتالي، نلاحظ عدم وجود نظرة وصفية شاملة، بل لم تكن هناك في الأساس نظرة تحليلية قائمة على دراسة تيارات هذه المؤسسات من أجل مراجعة هذه المؤسسات في عملية تاريخية مترابطة.

٢. التعاريف والمفاهيم

١.٢ صلاح الدين الأيوبي

تضمّ المؤسسات الصلاحية أربع مؤسسات ثقافية - تعليمية، أي مدرسة وخانقاه في القدس، ومدرسة وخانقاه في القاهرة، وتأسست جميعها بأمر من صلاح الدين الأيوبي، مؤسس الحكومة الأيوبية في مصر والشام. ولد مؤسس هذه المؤسسات، صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، عام ٥٣٢ هـ في منطقة تكريت شمال العراق. كان والده أيوب وعمه شيركوه من الأمراء الزنكيين، عائلة الأتابكة السلجوقية الشهيرة في الشام (ابن شداد، ١٩٦٤ : ٦). تمكن صلاح الدين من النفوذ إلى النظام الفاطمي تحت قيادة الدائرة السياسية

السنية السرية في عصر تدهور القوة الفاطمية الإسماعيلية في مصر. تمكن عام ٥٦٤ هـ من الوصول إلى الجهاز الوزاري الفاطمي والإطاحة بالخلافة الفاطمية وتأسيس حكومة الأيوبيين لصالح التيار السياسي والخلافة السنية في بغداد (ابن شداد، ١٩٦٤: ٤٠-٤٥؛ قلقشندط، د.ت: ٩١/١-٩٨). كانت سياسته في دمشق ومصر هي تفكيك المعالم الثقافية والدينية للإسماعيليين، ثم خوض الحروب العديدة مع الصليبيين (ابن شداد، ١٩٦٤: ٤٦؛ ابن خلدون، ١٣٨٤: ١٣٣/٢؛ زركلي، ١٣٩٦: ٨/٢٢٠). توفي صلاح الدين في نهاية المطاف في دمشق في ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ، بعد مرض دام اثني عشر يوماً ودُفن في نفس المدينة (ابن شداد، ١٩٦٤: ٢٤٦؛ عمادالدين اصفهاني، ٢٠٠٤: ٣٢٦-٣٢٧).

٢.٢ المؤسسات الصلاحية

١.٢.٢ المدرسة الصلاحية في بيت المقدس

كانت الصلاحية أول مدرسة رسمية في القدس. كان تأسيس هذه المدرسة من أوائل أعمال صلاح الدين بعد انتصاره على الصليبيين وتحرير القدس في رجب عام ٥٨٣ هـ (ابن شداد، ١٩٦٤: ٨١-٨٢؛ عمادالدين كاتب، ٢٠٠٤: ٦٦ و ما بعدها). بعد تحرير المدينة، دعا السلطان الأيوبي العلماء إلى الحضور وأعلن عن إنشاء المدرسة. كانت هذه المدرسة تسمى أيضاً «الناصرية» على اسم السلطان الأيوبي «الناصر» (ابن كثير، د.ت: ١٢/٣٢٦). كان المبنى المخصص لهذه المدرسة عبارة عن مبنى قديم بالقرب من بوابة الأسباط، والتي يعتقد المسيحيون أنها موطن حنة، والدة السيدة مريم (س) ومكان ولادة السيدة مريم و غسلها (156: Thubron, 1969; 347: Tamari, 1968). لا يزال المبنى الحجري لهذه المدرسة اليوم قائماً ومكوناً من أربعة أقسام على شكل صليب، وتوجد في مكان تقاطعه قبة صغيرة من العمارة المسيحية. لا تحدد المصادر المسيحية والتقارير الأثرية التاريخ الدقيق لبنائه (لمزيد من المعلومات انظر: Tamari, 1968: 330).

كان المؤرخ المشهور وملازم السلطان الأيوبي، قاضي القضاة الشافعي، بهاء الدين بن شداد صاحب النوادر السلطانية أول معلم في الصلاحية (ابوالفداء، ١٣٢٥: ٨٣/٣).

ظهور المؤسسات الصلاحية التابعة للأيوبيين (المدارس والخانقاهات) في بلاد الشام ومصر ٣٣

حنبلي، ١٩٦٦: ١٠٢/٢). تضمنت أوقاف السلطان للمدرسة الصلاحية أصولاً مثل سوق العطاراة في بيت المقدس، ومنطقة سلوان الزراعية، وحمام، والعديد من المتاجر في سوق المدينة (عسلي، ١٩٨١: ٦٤-٦٥؛ دجاني، ١٩٩٤: ٥٠٣-٥٠٤). بعد ابن شداد، أي في عام ٥٨٨هـ، تم اختيار عالم شافعي معروف آخر وهو مجد الدين بن جهيل الكلابي كمعلم في هذه المدرسة. تجاهل نعيمى (نعيمى، ١٩٤٨: ١/١٧٣) مرحلة تدريس ابن شداد و رئاسته للصلاحية واصفاً ابن جهيل بأنه أول معلم، ويبدو أن العسلي (١٩٨١: ٦٣) تجاهل فترة تدريس ابن شداد معتبراً أن افتتاح المدرسة كان عام ٥٨٨ هـ. من المعروف جيداً أنه ووفقاً لتقدم النوادر، فمن الأفضل اعتبار ابن شداد المعلم الأول وأن افتتاح المدرسة كان عام ٥٨٣ هـ. يحتل أن زيارة صلاح الدين لبيت المقدس والمدرسة وإضافة أوقاف جديدة وكتابة النقوش المدرسية في هذا العام، قد أدت إلى استبدال التاريخ الأصلي بعام ٥٨٨ هـ. استمرت الصلاحية في كونها مدرسة إسلامية حتى العهد العثماني، ولكن احتلها الفرنسيون في العصر المعاصر، وهي اليوم كنيسة سانت آني/حنّه، وهي جزء من الممتلكات الفرنسية في بيت المقدس وتعد مهمة للعالم المسيحي (Tamari, 1968: 336-337).

٢.٢.٢ المدرسة الصلاحية في القاهرة

يمكن اعتبار هذه المدرسة واحدة من أهم المدارس الشافعية في وسط وغرب العالم الإسلامي. يشار إلى هذه المدرسة بالناصرية على اسم السلطان الأيوبي. أسست هذه المدرسة بمرسوم من صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٧٢هـ، في منطقة القرافة في القاهرة بجانب قبر الشافعي إمام المذهب الشافعية (مقريزي، خطط، د.ت: ٤٠٠/٢؛ سيوطي، ١٩٦٧: ٢/٢٥٧). تم التخطيط لبناء مبنى جديد للمدرسة، والذي يبدو أنه قد اكتمل بحلول رمضان ٥٧٥هـ (عبدالوهاب، ١٩٤٦: ١/١٠٧). إن أهم دليل على هذا الادعاء هو نقش تابع لهذه المدرسة بخط النسخ الأيوبي، وهو محفوظ في متحف دار الآثار العربية في القاهرة ويشير نصه إلى التاريخ المذكور (عبدالوهاب، ١٩٤٦: ١/١٠٨). يتضح من نص هذا النقش وكذلك من تقرير السيوطي (١٩٦٧: ١/٤٠٦) أن المدرسة الصلاحية قد أسست بناءً على طلب نجم الدين خبوشاني (المتوفى عام ٥٨٧هـ)، العالم الشافعي الشهير، لأتباع المذهب الأشعري

ويمكن أن يوضح تأسيسه رغبة صلاح الدين الأيوبي بالترويج للمذهب الشافعي. كانت المدرسة الصلاحية، مثل غيرها من مؤسسات السلطان الأيوبي، مؤسسة رسمية حكومية وأحد الأدلة على هذا الادعاء هو الموقوفات التي خصصت لإدارتها؛ حيث قام صلاح الدين بوقف منطقة واسعة باسم جزيرة فيل بالقرب من بوابة بحر في القاهرة، وتشمل سوقاً كبيراً وجامعاً والعديد من البساتين (مقرنزي، د.ت: ٢/٤٠٠).

كان أول معلم في المدرسة الصلاحية نجم الدين خبوشاني وقد عينه صلاح الدين للإشراف على إدارتها وبقي في منصبه حتى وفاته (سيوطي، ١٩٦٧: ٢/٢٥٧). زار ابن جبير (١٩٨٤: ٢٢)، الرحالة المشهور، الصلاحية خلال هذه الفترة، ويوضح تقريره ازدهار المدرسة في سنواتها الأولى. بعد وفاة خبوشاني، تولى صدر الدين محمد بن حموية الجويني المنصب حتى وفاة صلاح الدين (سيوطي، ١٩٦٧: ٢/٢٥٧).

لا توجد تقارير محددة حول مواضيع الصلاحيات، لكن بالنظر إلى وجود علماء شافعيين مشهورين عملوا كمعلمين هناك، بالإضافة إلى إشارات إلى نقوش الفقهاء الشافعيين، يمكن القول إن الفقه الشافعي كان الموضوع الدراسي الأكثر أهمية هناك. أشار السخاوي (د.ت: ٤٤) أيضاً في القرن التاسع إلى تدريس الفقه هناك. وتفيد التقارير أيضاً أن باحثاً إيرانياً آخر هو محي الدين محمد بن يحيى النيشابوري الخبوشاني، قد وقف نسخة من كتابه بعنوان المحيط من شرحه المؤلف من عشرة أجزاء على الوسيط في الفروع للغزالي لهذه المدرسة (حاجي خليفة، ١٤٠٢: ٢/٢٠٠٨). على هذا الأساس، يمكن للمرء أن يعتبر كتاب المحيط أحد الموضوعات التي استخدمها طلبة الصلاحيات. قد يدل هذا التقرير أيضاً على وجود مكتبة صغيرة هناك. كانت المدرسة نشطة خلال العهد المملوكي (سيوطي، ١٩٦٧: ٢/٢٥٧-٢٥٩؛ سخاوي، د.ت: ٤٤) ودمرت أخيراً في عام ١٣٠٩ هـ، بأمر من الخديوي توفيق باشا، وبني مكانها مسجد (عبدالوهاب، ١٩٤٦: ١٠٧-١٠٨).

٣.٢.٢ الخانقاه الصلاحية في القدس

بنيت الخانقاهات الصلاحية، مثل المدارس الصلاحية، في الأيام الأولى بعد انتصار السلطان الأيوبي على الصليبيين في القدس في عام ٥٨٣ هـ وبأمر مباشر من السلطان

ظهور المؤسسات الصلاحية التابعة للأيوبيين (المدارس والخانقاهات) في بلاد الشام ومصر ٣٥

(عمادالدين، ٢٠٠٤: ٨١-٨٢). تمّ بناؤه في مكان يسمى دار البطريق، والذي اعتبره المسيحيون مكاناً هاماً.

كان خانقاه القدس، الذي لا يزال بناؤه قائماً حتى اليوم، مثل المدارس الصلاحية الأخرى، ذا هيكل حكومي وإداري، وكان فيه مشرف على إدارة ووقف الأصول، كما تم وقف عقارات كثيرة ذات إيرادات ضخمة لأجله، ووفقاً لخطاب الوقف، فقد كانت الإقامة فيه مجانية لجميع الصوفيين من جميع الأعمار، متزوجين وعازبين، من أي عرق، شرط أن يقوموا بممارسات دينية معينة مثل قراءة القرآن بعد صلاة العصر والأدعية والأذكار والتجمع يوم الجمعة بعد شروق الشمس في الخانقاه أو في المسجد الأقصى وقراءة نصوص ماشيخ الصوفية (عسلي، ١٩٨١: ٣٣٢).

كان الصوفيون على صلة وثيقة بالموضوعات المدرسية والتعاليم الفقهية للمدرسة الصلاحية، وكان البعض منهم أعضاء في كل من المكانين، وهو مثال مثير للاهتمام على العلاقة بين الصوفية والفقهاء في الثقافة ونظام التعليم الإسلامي. وكان هناك شيوخ معظمهم من أنصار بني غانم الحجاز، وكانوا يتوارثون هذا المنصب. استمر هذا الخانقاه في العمل حتى العهد المعاصر وما زال بناؤه موجوداً حتى اليوم (نفس المصدر: ٣٣٥).

٤.٢.٢ الخانقاه الصلاحية في القاهرة

يعتبر الخانقاه الصلاحي في القاهرة (ويسمى كذلك سعيد السعداء) أهم خانقاهات العهد الأيوبي وقد بني بأمر من صلاح الدين الأيوبي في محلة الرحبة في القاهرة بالقرب من باب العيد عام ٥٦٩هـ (مقريري، خطط، د.ت: ٤١٥/٢). كانت الصلاحية أو خانقاه في مصر وبنيت في موقع منزل أحد رجال البلاط الفاطميين باسم قنبر/عنبر/بيان المعروف بسعيد السعداء؛ ومن هذا المنطلق سمي هذا الخانقاه سعيد السعداء، كما أطلق عليه أحياناً اسم الناصرية على اسم السلطان الأيوبي (مقريري، د.ت: ٤١٥/٢؛ سيوطي، ١٩٦٧: ٢٦٠/٢). وقفت لهذا الخانقاه موقوفات ثمينة من قبل السلطان الأيوبي وشملت ناحية قيسارية الشراب في القاهرة وبساتين الحبانية وناحية دهمرو في البهنساوية (مقريري، د.ت: ٤١٥/٢). عين السلطان الأيوبي شخصاً بمنصب «مشيخة الشيوخ» في رئاسة هذا الخانقاه (مقريري، د.ت:

٨٦/٢، ٤١٥-٤١٦). وتوارث هذا المنصب، مثل سائر مدارس العهد الأيوبي التي شكلت النخبة الإيرانية معظم أفراد طاقمها التدريسي، سلسلة من الإيرانيين المعروفين من الأسرة الحموية الجوينية وهم صدر الدين محمد بن حموية (إنه ابن سعد الدين الحموية، متصوف جويني معروف؛ لمزيد من المعلومات حول مكانته في التصوف انظر: حمويه، ١٣٦٧: ٨٨-١٢٠؛ نفيسي، ١٣٤٢: ٣٥-٥٠) وابنه أحمد وحفيده حسن، وعليه فقد سيطر التصوف الخراساني على هذا الخانقاه لثلاثة أجيال على الأقل (مقريزي، د.ت: ٤١٥/٢؛ سيوطي، ١٩٦٧: ٢/٢٦٠).

كانت أهم الطقوس الصوفية تُعقد كل يوم جمعة في هذا الخانقاه، حيث شملت المسيرات والأدعية من الخانقاه إلى جامع المدينة الرئيسي وبالعكس، فقد كانوا يسيرون بطريقة منظمة مع الدعاء لأجل السلطان، وكان الناس يأتون من المناطق المجاورة لرؤيتهم والتبرك بطقوسهم (مقريزي، د.ت: ٤١٥/٢).

استمر الخانقاه الصلاحي حتى العصر المملوكي وتم حله عام ٨٦٠ هـ. ومع ذلك، إن إلقاء نظرة على تاريخه وأهاليه يشير إلى أنه ربما استمر حتى العهد العثماني (سيوطي، ١٩٦٧: ٢/٢٦١). قدم السيوطي قائمة تضم ٣٣ شيخاً من هذه الأسرة، بدءاً من ابن حموية ووصولاً إلى السنطاوي، ربما في أواخر العهد المملوكي (نفس المصدر: ٢/٢٦٠-٢٦١).

٣.٢ نموذج المفاهيم أو نظرية الانتشار (البث)

تطرقنا في هذه الدراسة إلى المفهوم النظري للانتشار (البث) لفهم العوامل العملية في ظهور المدارس والخانقاهات، المحور الأساسي لهذه النظرية عبارته عن تبين المؤثرات الظاهرة حين يتم بثها. الظواهر التي تعتبر من فئات البث لها طابع الابتكار والراي والرويه (محمود أوغلي، ١٣٩٥: ٤٧). باستطاعه البث ان يكون عنصراً ثقافياً مميزاً، ينتقل من مجتمع إلى مجتمع ويصبح مستعاراً ايضاً (نفس المصدر: ٤٨). يجب أن تتقارب البيئة المستعدة مع هذه الظاهرة. من الضروري أيضاً أن تكون لهذه الظاهرة أدوات وقنوات (تيارات) مناسبة للبث (خسروشيري وجوان، ١٣٨٨: ٩٣). في الواقع ان طبيعة نظرية الانتشار (البث)، ثقافية.

ظهور المؤسسات الصلاحية التابعة للأيوبيين (المدارس والخانقاهات) في بلاد الشام ومصر ٣٧

ولديها قدره الوفير من القوة التفسيرية و التعبيرية على الظواهر الثقافية (كامران وآخرون، ١٣٩٢: ٧٣). لهذا السبب استخدمناها لدراسة أبحاث. تشمل العوامل المؤثرة في البث عليطبيعة الرسالة وجاذبيتها، وقوة الناقله للرسالة، والقدرة على القبول والتصرف من قبل المستلم، جغرافيا الرسايل، والجاذبية المبتكرة للانظمة الحيوية(موضوع الانتشار)، وسياسة حماه اكتساب الرسائل ونقل التحديث (نفس المصدر، ١٣٩٢: ٧٣).

المفهوم الأساسي لنظرية البث هو الانتشار بالنقل، أي تغيير نظرة المجتمع عن طريق الافراد التي تهدف الي التحولات الواسعة في البيئة الأخرى. بمعنى آخر، إذا تطورت ظاهرة في مكان ما يكون هناك مجال لتأثيرهاو ترسيخها في أي مكان آخر (محمود اوغلي، ١٣٩٥: ٤٨). إن التغييرات في الجغرافيا تنشأ في موقع واحد أو أكثر وتندفق عبر الطرق وعقد الاتصال على الشبكات أو عبر السطوح وتصل إلى القطاعات الأخرى (نفس المصدر: ٤٨-٤٩). ومع ذلك من الممكن ان تكون التحولات أساساً لهذه التغييرات مع مرور الوقت (نفس المصدر: ٤٩). بشكل عام، نعتقد أن هذا النموذج المفاهيمي يمكن استخدامه لفهم العوامل الكامنة وراء ظهور المؤسسات الصلاحية في مصر والشام، والتي سنتطرق إليها لاحقاً.

٣. عوامل ظهور المدارس الصلاحية

١.٣ العوامل السياسية

منذ القرن الأول الهجري، كان التيار السياسي الشيعي العلوي يعارض تيار الخلافة الإسلامية (الأموية والعباسية). على الرغم من افتقاره إلى القوة، فقد دعم تيار النقد السياسي هذا العديد من التطورات في التاريخ الإسلامي، حيث لعب دوراً في جميع الثورات التي قامت في عهد الأمويين والعباسيين. في القرن الرابع، وصلت هذه الاضطرابات السياسية إلى السلطة في أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي؛ فقد ظهر آل بويه في إيران والعراق والخلافة الفاطمية الإسماعيلية في شمال إفريقيا ومصر والضفة الغربية في بلاد الشام والحكومات المحلية مثل بني مرداس وبني حمدان في أجزاء من العراق والشام (انظر: زماني محبوب و بادكوبه هزاوه، ١٣٩١: ٩٤ وما بعد؛ آرمين دخت وآخرون، ١٣٩٥: ١٤٨ وما بعد).

في حالة ديناميكية، أي كرد فعل تاريخي منذ منتصف القرن الخامس، تطورت قوة السيادة السنية في العالم الإسلامي مرة أخرى، وقد اقترن ذلك بظهور السلاجقة، وإنشاء حكم أتابكي أو انتماء سياسي إلى السلاجقة واستعادة السلطة السياسية العباسية. كان ظهور الأيوبيين في الشام ومصر، والذين أطاحوا بالفاطميين الإسماعيليين وخرجوا من جهاز السلطة السلجوقية - الأتابكية الزنكية، مثلاً على السلطة السياسية السنية.

بعد أن قطع الأيوبيون أشواطاً سريعة مثل الإطاحة بالفاطميين، أصبحوا بحاجة إلى البقاء في الصراع الديني الداخلي للحكومات الإسلامية، ولم يكن هذا البقاء ممكناً إلا من خلال اكتساب الشرعية السياسية. لقد كانت تجربة بناء المدارس في العهد السلجوقي - الأتابكي في المنطقة الشرقية مثلاً ناجحاً لدورة إعادة إنتاج الشرعية السياسية. سعى صلاح الدين أيضاً للاستفادة من هذه التجربة. جنباً إلى جنب مع المدارس، قام أيضاً بإنشاء تصوف بوظائف مماثلة للفقهاء السني لأجل استغلاله في الحالات اللازمة. كانت أهمية إحداث الصلاحيات في الحصول على شرعية سياسية مهماً جداً بالنسبة لصلاح الدين لدرجة أن المصادر التاريخية (السنة) صورت بناء المدارس والخانقاهات من قبله كأبرز خدماته (ابن واصل، ١٣٨٣: ١٩٧).

إن تقارير خانقاه القاهرة وذكر الأدعية التي كان يستخدمها الصوفيون لصحة السلطان وسعادته وكان ينظر إليها على نطاق واسع من قبل العامة على أنها أمر مقدس، هي أمثلة على نجاح سياسات كسب الشرعية (مقريري، د.ت: ٤١٥/٢).

إن الاختيار الدقيق لمكان بناء المدرسة الصلاحية في القاهرة «بجانب ضريح محمد بن إدريس الشافعي» (نفس المصدر: ٤٠٠/٢) هو دليل آخر على استخدام المدرسة لكسب الشرعية من خلال انتمائها إلى الشافعية التي كانت تشكل الأغلبية في مصر. يشير ذكاء المقريري في إدراكه لهذه الوظيفة السياسية لصلاحية القاهرة إلى قرار نظام الملك غير الناجح بنقل قبر الشافعي إلى مدرسته النظامية في بغداد فور ذكر هذا الموقع للمدرسة (مقريري، د.ت: ٤٦٤/٢؛ 42، 1985: "The Madrasa...", Leiser). بشكل عام، رأى السلطان الأيوبي أن اتباع سياسات نظام الملك ومحاولة تحقيق الشرعية السياسية من خلال بناء المدارس والخانقاهات هو أمر في غاية الأهمية (مقريري، د.ت: ٣٦٣/٢-٣٦٤).

ظهور المؤسسات الصلاحية التابعة للأيوبيين (المدارس والخانقاهات) في بلاد الشام ومصر ٣٩

كانت الأدوات الأكثر أهمية لإعادة إنتاج الشرعية هي المدارس والخانقاهات والعلماء والطلبة والصوفيين التابعين لهم، والذين كان بإمكانهم أن يعملوا كرجال دولة في البلاط، ويكونوا على تواصل اجتماعي مستمر مع الجمهور، مما زاد من النفوذ السياسي لهذه المؤسسات في المجتمع.

وبصرف النظر عن موضوع الشرعية الذي كان يمكن أن يساعد في إضفاء الطابع المؤسسي على السلطة السياسية للأيوبيين، فقد كان من الممكن لمدرسي المدارس أو شيوخ الخانقاهات أن يكونوا قد عملوا في حالات خاصة على مساعدة السلطان، مثل نجم الدين خبوشاني، المدرس في صلاحية القاهرة، والذي كان أحد أكثر الأشخاص نفوذاً في إضفاء الشرعية على خلع الخليفة العاضد الفاطمي (سبكي، ١٩٩٢: ١٥/٧؛ ابن قاضي شهبه، ١٤٠٧: ٤٥/٢).

٢.٣ العوامل الدينية

مع صعود السلطة السياسية للسلاجقة والأتابكة التابعين لهم منذ القرن الخامس الهجري، تمت صياغة سياسة دينية مهمة من قبلهم في المدارس النظامية ومدارس أخرى للأتابكة بعدها، بما في ذلك الزنكيين في بلاد الشام، وحددت إستراتيجيتها الأساسية في القضاء على التفسيرات المختلفة للدين وتوفير منصة متجانسة قائمة على النقل البحث أو تقييد العقلانية بمحالات نقل المعينة، بما في ذلك تقوية الكلام الأشعري. بالإضافة إلى المدارس، كان للخانقاه أيضاً مكانته الخاصة في السياسات الدينية للحكام السنة قبل الأيوبيين، تماماً كما قام نظام الملك بخلق حاجز ضد الإسماعيليين والكراميين من خلال بناء المدارس وتطويرها، بدعم من الخانقاهات (عدلي، ١٣٩٢: ٧١٨ وما بعدها).

حظي هذا النمط الذي استعمل في إيران والعراق باهتمام صلاح الدين من الناحية المنطقية. كما رأينا في التقارير أعلاه، فإن جميع المؤسسات الصلاحية تنتمي إلى المدرسة الشافعية والمذهب الأشعري واقتدت بالمدارس النظامية، مع اختلاف وحيد يتمثل في أن صلاح الدين في هذه المرحلة دعا إلى التوفيق بين النزعات الرسمية الزهدية في شكل يتوافق مع الفقه الشافعي والكلام الأشعري ضمن إطار الخانقاهات. كان نجاح هذه السياسة

يرضي العلماء السنة أنه حتى في أدب العالم الإسلامي الرسمي فقد عكس شخصية صلاح الدين بأنها «نموذج للتربية الإسلامية» و«العامل بالشرعية الإسلامية» وشخصية مزينة بالأخلاق «الزهدية» (ابن شداد، ١٩٦٤: ٧-٣٤؛ عمادالدين اصفهاني، ٢٠٠٤: ٣٤١-٣٤٤؛ ابن جبير، ١٣٧٠: ٨٥؛ زركلي، ١٣٩٦: ٨/٢٢٠؛ طارق علي، ١٣٨٥: ٨/٢٢٠؛ دعكور، ٢٠٠٦: ٢٨٩ به بعد).

تمت ممارسة النزعة الزهدية لصلاح الدين الأيوبي في شكل خانقاهات حكومية بشكل رسمي، حتى أن نقوش خانقاه القاهرة ذكرت أنه تم تخصيصه للفقهاء الشيعي السني أو المالكي وضمن التزامهم بالكلام الأشعري:

«...فهذه الخانقاه تكون وفقاً على الطائفة الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة والقاطنين بالقاهرة ومصر فإن لم يوجد فتكون على الفقراء من الطلاب الشافعية والمالكية الأشعرية الاعتقاد...» (مقريري، د.ت: ٤١٦/٢).

في هذه المؤسسات، كان معلمو المدارس وشيوخ الخانقاهات من المساهمين الرئيسيين في الدور الديني في المجتمع وأمكنهم لعب دور فعال في انسجام السياق الديني للمجتمع. على سبيل المثال، يمكن للمرء أن يرى دور محمد الدين بن جهيل الكلبي، المعلم في صلاحية القدس، في إضفاء الشرعية على اغتيال الشيخ شهاب الدين السهروردي، مؤسس مدرسة الإشراق للحكمة الفلسفية في عام ٥٨٧ هـ، وكان ذلك مثلاً مثيراً للاهتمام على مواجهة بين تيار التدين التقليدي (النهج الأشعري) والاتجاهات العقلية اليهودية مثل حكمة الإشراق (عسلي، ١٩٨١: ٧٧).

يتمثل الدليل الآخر في هذا المجال في الدور الذي لعبه نجم الدين خبوشاني، المعلم بالمدرسة الصلاحية بالقاهرة، في التعامل مع الحنابلة؛ ولعبت المدارس التي تؤكد على كلام الأشعريين دوراً حاسماً ليس فقط ضد الأفكار والمعتقدات الفلسفية الشيعية، بل شكلت أيضاً حواجز قوية أمام النقل الحنبلي البحت. في سنواته الأولى في مصر، وقف خبوشاني بحزم في مواجهة النزعة الحنبلية المصرية التي تدور حول شخصية تدعى ابن الكيزاني، وقمعهما على حساب المواجهات في الشوارع بين مؤيديه الأشعريين والحنابلة (Leiser, "The Madrasa...", 1985: 42).

ظهور المؤسسات/الصلاحية التابعة للأيوبيين (المدارس والخانقاهات) في بلاد الشام ومصر ٤١

إن نظرة إلى قائمة علماء تلك المؤسسات مثل صدر الدين الجويني، تقي الدين بن رزين، تقي الدين بن دقيق العيد، برهان الدين خضر السنجاري، محمد بن عبد البر السبكي وعلاء الدين علي بن أحمد القلقشندي (سخاوي، د.ت: ٤٤؛ لمزيد من المعلومات حول أسماء المدرّسين في هذه المدرسة انظر: السيوطي، ١٩٦٧: ٢/٢٥٧-٢٥٩)، الأسرة الحمّوية الجوينية، أي صدر الدين محمد بن الحمّوية (إنه ابن سعد الدين الحموية، متصوف جويني مشهور؛ لمزيد من المعلومات انظر: الحموية، ١٣٦٧: ٨٨-١٢٠؛ نفيسي، ١٣٤٢: ٣٥-٥٠)، وابنه أحمد وحفيده حسن، ومقارنتها بما ذكر عن ابن جهبل والخبوشاني، يمكن أن تشير إلى دورهم الهام. هذا هو السبب في أن ابن شداد، مؤرخ السلطان الخاص، اهتم بشدة بالتعاون بين السلطان والعلماء والشيوخ (ابن شداد، ١٩٦٤: ٧). كان تأثير بعض هؤلاء العلماء كبيراً لدرجة أنه على سبيل المثال، كان الخبوشاني في يوم من الأيام غاضباً من تجاهل السلطان لوجهة نظره، فضرب قلنسوة السلطان فوقعت على الأرض وظل السلطان صامتاً (ذهبي، ١٩٤٨: ٤/٢٦٢؛ سبكي، ١٩٩٢: ٧/١٥).

٣.٣ العوامل الجهادية

استولى الصليبيون الذين ظهروا في بلاد الشام في عام ٤٩٠هـ، على نطاق واسع من المناطق المهمة في الأناضول والمشرق ومصر (حتى، ١٣٨٠: ٨٠٤ و ما بعدها). كان الصليبيون يشكلون تهديداً للمجتمع الإسلامي من عدة جوانب؛ أولاً، ووفقاً لآراء الفقهاء السابقين، كان مبدأ العلاقة بين الحكومات الإسلامية والمسيحية هو الجهاد؛ وثانياً، واجه المسلمون هجوماً حقيقياً في هذا الوضع، ولأجل الدفاع أذن الفقه الإسلامي بهذا الجهاد واعتبره إلزامياً على أي مسلم (حاج اسماعيلي و حبيب الهي، ١٣٩١: ٣٨-٣٩؛ فيرحي، ١٣٨٧: ١٣٣)، ثالثاً، تاريخ المسيحيين الطويل في بلاد الشام ومصر، خاصة وجود مدتهم وأماكنهم المقدسة في هذه المناطق، مما جعل دوافعهم للاحتلال الدائم لهذه المناطق أكثر خطورة. كانت هذه التهديدات تحدث ضد الأراضي الإسلامية عندما كان الحكام الإسلاميون الكبار في الخلافة العباسية والفاطمية، غافلين عن هذا الغزو. كان ظهور الزنكيين في الشام في بداية القرن

السادس أهم عامل دفاعي ضد الصليبيين، وقد ورث الأيوبيون لاحقاً تراثهم السياسي، وسبقوهم في هذه الدوافع الجهادية (حتي، ١٣٨٠ : ٨٠٤ و ما بعدها)، حيث يعتبر صلاح الدين الأيوبي واحداً من أكثر الجهاديين شهرة ضد الصليبيين. يرتبط اسمه بشكل كبير بالجهاد، حيث يعتبر ابن شداد جهاده من سجايه الأخلاقية (ابن شداد، ١٩٦٤ : ٢١-٢٣)، ويذكر في قائمة الحملات التي قام بها ضد الصليبيين أنه حرر ما يقرب من ٨٠ مدينة وقلعة (نفس المصدر: ٢٤٨).

من بين كل هذه الانتصارات المتكررة والهامة للسلطان الأيوبي ضد الصليبيين، كان تحرير القدس هم الأهم وذلك بسبب أهميتها بالنسبة للحملة الصليبية ووجود مزارات رئيسية باعتبارها الدافع الأكثر أهمية للدعاية لغزو العالم الإسلامي (لمزيد من المعلومات حول بيت المقدس، لا سيما من وجهة نظر المسيحيين انظر: Colin Thubron, Jerusalem, London, 1969). من ناحية أخرى، رأى المسلمون أيضاً أن سقوط القدس هو فشل كبير لهم، وذلك بسبب الإشارات القرآنية إلى الأهمية المقدسة للمدينة ومعالمها التاريخية. وهكذا، كان تحرير القدس رمزاً لانتصارات السلطان الأيوبي في المعارك الجهادية ضد الصليبيين. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ما هي العلاقة بين صلاحيات القدس وهذا النصر العظيم؟

في كتاب بعنوان *الفن الإسلامي*، قدم باحث الفن الإسلامي، أوج غرابار، نظرية لظهور المباني الرمزية من قبل أتباع الديانات، بما في ذلك على سبيل المثال، بناء قبة الصخرة الرمزي بهدف الإعلان عن وجود الإسلام أمام المسيحيين، معتبراً أن الغرض من بنائه كان أن يعلن للعالم المسيحي أن المنطقة الأكثر قداسة في مدينة القدس تحت تصرف الإسلام وأن الإسلام واثق من بقائه إلى حد أنه بنى هذا البناء الرائع (غرابار، ٢٠٠٠ : ٤٩ وما بعدها). لا يبدو أن التطبيق النظري لهذه النظرية وثيق الصلة ببناء صلاحيات القدس.

كان ينبغي أن يكون للنصر العظيم للسلطان الأيوبي آثار تاريخية. في مدينة تحترمها الأديان الثلاثة، ولكنها محط صراع بين الإسلام والمسيحية، كان من أفضل النصب التذكارية مكان يقع في الموقع المقدس للمسيحيين ولكن يستخدم لأغراض إسلامية. كان يمكن أن تكون الصلاحيات رمزاً لهذا الانتصار التاريخي، وكان أول أعمال السلطان الأيوبي بعد تحرير

ظهور المؤسسات الصلاحية التابعة للأيوبيين (المدارس والخانقاهات) في بلاد الشام ومصر ٤٣

المدينة إصدار مرسوم بتأسيس الصلاحيات (عماد الدين كاتب، ٢٠٠٤: ٨١-٨٢؛ ابوالفداء، ١٣٢٥: ٨٣/٣؛ ابن كثير، د.ت: ١٢/٣٢٦؛ حنبلي، ١٩٦٦: ٢/٣٤٠-٣٤١). من ناحية أخرى، فإن وجود علماء مثل ابن شداد يعزز هذه الفكرة في اتخاذ قرار بإنشاء هذه المؤسسات وفي وقت لاحق في إدارتها وفي الوقت نفسه دورهم في حملات السلطان الجهادية (ابن شداد، ١٩٦٤: ٢١-٢٣). إن تقرير عماد الدين أصفهاني، المؤرخ الملازم للسلطان الأيوبي، يدور حول كيفية نشأة خانقاه الصلاحية:

«... وكان الملك العادل نازلاً في كنيسة صهيون، و أجناده على بابها مخيمون، و فاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار، و أتقياء الأخيار، في مدرسة للفقهاء الشافعية، و رباطٍ للصالحاء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروف بصند حنّه عند باب أسباط، و عين دار بطرك و هي بقرب كنيسة قمامه للرباط، و وقف عليهما وقوفاً أسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً، و ارتاد أيضاً مدارس لطوائف ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف. و أمر بإغلاق أبواب كنيسة قمامه، و حرم على النصارى زيارتها و لا الإمامه. و تفاوض الناس عنده فيها. و منهم من أشار بهدم مبانيها، و تعفية آثارها، و تعمية نهب مزارها و إزالته تماثيلها و أزاحه أباطيلها و أطفاء قناديلها و أعفاء أناجيلها و إذهاب تساويلها، و إكذاب أقاويلها، و قال أكثر الناس: لا فائدة في هدمها و لا هدها... ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس فى صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان و لم يأمرهم بهدم البنيان» (عمادالدين، ٢٠٠٤: ٨١-٨٢).

يظهر التقرير أعلاه أنه في ذروة الفتوحات المهمة للسلطان، وبينما كان لا يزال الجو العسكري مسيطراً على الفاتحين، بنيت مؤسستان تعليميتان إسلاميتان، المدرسة وخانقاه الصلاحية، على هيكل الأبنية المسيحية المقدسة، لتكونا في الوقت نفسه تجسيداً لهذا الانتصار، لكن بالطبع مع تجنب التخريب الانتقامي لهذه الأبنية، لأن الغزاة احتلوا مدينة يشعرون نحوها بالملكية بشدة ولا يعتبرون أن تدمير منازلهم أمر لائق. في الوقت نفسه، سيتم تعليم طلبة الفقه الشافعي جنباً إلى جنب مع الزهاد الصوفيين في مدينة تبعد عشرات السنين عن مد التعليم والصوفية في العالم الإسلامي بسبب سيطرة الصليبيين. أدت هذه الوظيفة الرمزية إلى استمرار زرع وإعادة إنتاج الدوافع الجهادية في سكان هذه المؤسسات أو من قبلهم في المجتمع.

لا تنطبق الدوافع الجهادية على صلاحيات القدس فحسب، بل على صلاحيات القاهرة كذلك. وكما لوحظ، فإن الفقه في قضايا مثل الجهاد الأولي كان الحافز الجهادي الأكثر أهمية لمواجهة الصليبيين، وكان من الممكن تعميمه على نطاق واسع في المجتمع من خلال المدارس أو الخانقاهات الفقهية، والتي كانت المؤسسة الرسمية الأكثر أهمية لتعليم الفقه وبنيت في الأماكن المزدهمة مثل الأسواق والأماكن التي يرتادها العامة كثيراً. إن العلاقة بين الخانقاهات والمدارس ترفع كذلك من مستوى الوعي الجهادي لمجتمع الزهد في المدن. من ناحية أخرى، عززت الخانقاهات نفسها نطاق الدعاية للجهاد من خلال تعزيز المشاعر الزهدية كأريطة الثغور.

٤.٣ العوامل العملية

عند دراسة المؤسسات الصلاحية والنظر في تجارب المدارس والخانقاهات قبل ظهور الصلاحيات، يمكن للمرء أن يجادل بأن العوامل العملية تشارك في تأسيسها. في تاريخ الحضارة الإسلامية، يمكن اعتبار المدارس الشكل المؤسسي والاجتماعي للفقه السني. مع الارتباط القوي بين الفقه السني والحكم السياسي، منذ أواخر القرن الرابع، تحول الحكم إلى دعم الفقهاء وطلبة العلوم، وظهرت المدارس في شرق إيران، مثل الصاعديية وابن فورك وبيشكي في نيشابور، وكانت مدعومة من قبل الغزنويين أو السلاجقة (عتي، ١٤٢٤: ٤٣٦-٤٣٧؛ فارسي، ١٤٠٣: ٧٠٧؛ غنيمه، ١٣٧٧: ١١١-١١٢). يقدم بارتولد أحد أكثر التعليقات إثارة للاهتمام حول ظهور المدارس، حيث يرى أن هذه المؤسسة كانت في الواقع اقتباساً للحضارة الإسلامية من "الويهار" البوذي في مناطق مثل آسيا الوسطى وأفغانستان، حيث كانت تعمل كمؤسسة دينية لخدمة البوذية، بمعنى أن الطلبة المستجدين كانوا يعيشون فيها لتلقي العلوم الدينية مشكلين طبقة معينة تتلقى الدعم المالي من المجتمع لإدارة هذه الحياة (Leiser, "Notes...", 1986: 16-17).

من الناحية الاجتماعية، كان للخانقاهات أيضاً أوجه تشابه مع المدارس، مما يعني أنها كانت تعتبر مكاناً للتجمع أو مقراً للصوفيون الذين كانوا يمارسون العبادة وتركيز النفس والعزلة تحت إشراف شيخ الخانقاه (عدلي، ١٣٩٢: ٧١٨). كانت هذه الحياة أكثر تعقيداً من

ظهور المؤسسات الصلاحية التابعة للأيوبيين (المدارس والخانقاهات) في بلاد الشام ومصر ٤٥

تعلم الفقه، حيث اعتبر المتصوف نفسه مصدر المعرفة كلها (پور جوادي، ١٣٨٨: ١) وأحياناً كان يشار إليه بروح الإسلام (چيتيك، ٢٠٠٩: ٣٨).

وهكذا، فإن الظاهرتين النظريتين للفقه السني والتصوف والجانبيين ذوي الصلة بظهورهما الاجتماعي، وهما المدرسة والخانقاه كظواهر ثقافية، قد ظهرت منذ القرون الإسلامية الأولى في الأراضي الشرقية لهذه الحضارة، وهي خراسان الكبرى وإيران والعراق.

وفقاً لمفهوم نظرية الانتشار أو البث، والذي يوضح تأثير الظواهر الثقافية أو انتقالها من مجتمع إلى آخر (محمود اوغلي، ١٣٩٥: ٤٧-٤٨)، يمكن اعتبار طبيعة ظهور المؤسسات الصلاحية مقولة من هذه الفئة، حيث يمكن اعتبار المدرسة والنظام المدرسي والخانقاه متغيرات مستقلة تؤثر على المتغيرات البيئية مثل القدس والقاهرة. على طول هذا المسار، فإن التقارب بين بيئتي المصدر (خراسان، إيران والعراق) والوجهة أو البيئة المستقبلية (القدس والقاهرة) قدمت عوامل مثل السياق السني في الغالب والسياسات الدينية للسيادة المشتركة، أي نظام السلاجقة - الأتابكة (خسروشيري وجوان، ١٣٨٨: ٩٣).

يبدو أن تقسيم الثلاثي لهذا المفهوم يطبق على جميع المستويات الثلاثة في حالة المؤسسات الصلاحية (نفس المصدر: ٩٦-٩٧):

١. **الانتشار بالنقل:** والذي يكون فيه موضوع البث ثقافياً ويتم عن طريق الأفراد. من الواضح أن وجود الإيرانيين، مثل الخبوشانيين والأسرة الجوينية، كخريجين من المدارس النظامية وكبار الفكر الزهدي، هو أحد هذه القضايا التي صاحبها تسهيل السيادة السياسية. حتى خانقاهات القاهرة عند إنشائها، كانت من أجل الصوفيين الذين هاجروا إلى القاهرة (مقريزي، د.ت: ٤١٥/٢)، والذين ربما كانوا الجيل الأول من الصوفيين المتعلمين في الخانقاهات الحكومية المصرية.

٢. **الانتشار الهرمي:** الذي يكون موضوعه أي نوع من التفكير الرائد أو الإمكانيات الحضارية التي تنتقل أنماطها القابلة للاقتباس من منطقة إلى أخرى. وكان الدليل الأكثر أهمية على هذا النوع من التوزيع هو الآلية التنظيمية للصلاحيات، والتي تم تصميمها بطريقة معقدة ومتطورة من قبل المؤسسات الشرقية المماثلة مثل المدارس النظامية. على سبيل المثال، حصل

المدرس في صلاحية القاهرة على أربعين ديناراً شهرياً للتدريس بالإضافة إلى القليل من الخبز والماء يومياً. وقد أشرف أيضاً على الأوقاف والشؤون الأخرى هناك، ودفعت له عشرة دنانير شهرياً مقابل مسؤولياته الأخيرة (مقريزي، د.ت: ٤٠٠/٢؛ سيوطي، ١٩٦٧: ٢/٢٥٧؛ سخاوي، د.ت: ٤٤). كان هذا المدرس يتلقى يومياً ٦٠ رطلاً مصرياً من الخبز بالإضافة لقربتين من الماء (مقريزي، د.ت: ٤٠٠/٢). كان يمكن للمدرسين في الصلاحية تعيين شخص آخر ليقوم بهذه الواجبات بالنيابة عنهم (جبرتي، د.ت: ٣٥/٢؛ ابن حجر عسقلاني، ١٣٩٢: ١/٤٣٢). وقد عمل في تلك المدارس المعيدون أو الأساتذة المساعدون (مقريزي، د.ت: ٤٠٠/٢). في بعض الأحيان، كانت هناك تغييرات في رواتب المدرسين تبعاً للوضع الاقتصادي (مقريزي، د.ت: ٤٠٠/٢؛ سيوطي، ١٩٦٧: ٢/٢٥٧؛ سخاوي، د.ت: ٤٤). وكان خانقاه القاهرة أيضاً يتسع لـ ٣٠٠ شخص (مقريزي، د.ت: ٤١٦/٢). تلقى الصوفيون له بدلاً شهرياً، وتعويضاً عن السفر إلى وطنهم الأم، والطعام اليومي من الاعتمادات الوقفية؛ وكان قوتهم اليومي يتكون من ١١٠ غراماً من اللحم يومياً وكيلوغراماً واحداً من الخبز وبعض الحلوى والصابون شهرياً. كما استلموا أربعين درهماً في السنة للملابس، وكان لديهم حمام خاص بالقرب من الخانقاه، ولم يُسمح لغير المسلمين بالدخول إليه (نفس المصدر: ٤١٥/٢). يساعد هذا النظام الهيكلي على طول عمر هذه المؤسسات، حيث اعتمدت مدرسة القاهرة الصلاحية على أوقافها المتناسكة لعدة قرون بعد تأسيسها، وتشير التقارير التاريخية إلى أن بنيتها التي كانت في العهد الأيوبي ظلت كما هي طوال العهد المملوكي (سخاوي، د.ت: ٤٤). وبعد ذلك حافظت على وظائفها التعليمية مع بعض التعديلات التي أجراها المماليك، حتى القرن الثاني عشر الهجري، حيث كان التعليم فيها على عاتق شيخ الأزهر (جبرتي، د.ت: ٣٥/٢).

٣. الانتشار الساري: الذي تبرز أمثلته الثقافية في خلق المشاركة الفكرية والدينية. من الواضح أن أهم تأثير للصلاحيات كان تعميم الأفكار الدينية السننية والتعاليم الكلامية الأشعرية في جميع أنحاء بلاد الشام ومصر. لم تؤد هذه الآثار إلى اعتناق عدد من المسيحيين الأقباط واليهود للإسلام السني فحسب (Leiser, "The Madrasa...", 1985:37 ff)، بل

واصلت آثارها في جميع أنحاء العهد المملوكي والعثماني، حيث يقول المقرئ حول الآثار طويلة الأجل لسياسات صلاح الدين على الترويج للكلام الأشعري في المجتمع المصري: «بقي الأمر على هذا المنوال بالنسبة للأشعريين» (مقرئ، د.ت: ٣٤٣/٢).

من خلال تطبيق المفهوم النظري للانتشار على ظاهرة المؤسسات الصلاحية، يمكن أن نستنتج أن ظاهرة ظهور الصلاحيات قد تأثرت بعوامل عملية في هذا الصدد؛ وبعبارة أخرى، إن جميع العوامل التي تؤثر على الانتشار مثل الزمن التاريخي الذي توسعت خلاله منجزات الحضارة الإسلامية من الشرق إلى الغرب، قابلة لإعادة التعريف في ظهور المؤسسات الصلاحية، حيث كانت جغرافية بلاد الشام ومصر تربطها بالجزء الشرقي للعالم الإسلامي والعراق وإيران (جغرافيا الرسائل) وهجرة النخبة أي خريجي المدارس النظامية أو التقاليد الشرقية الزهدية إلى بلاد الشام ومصر (القوة الناقلة للرسالة)، الجاذبية المتكررة للأنظمة الحيوية والتعليمية للمدرسة والخانقاه (موضوع الانتشار)، جاذبية التكامل الفكري للأفكار السننية والأشعرية (طبيعة الرسالة وجاذبيتها)، غالبية السنة في الشام ومصر (القدرة على القبول والتصرف من قبل مستلم الرسالة) والسياسات الدينية الأيوبية (سياسة حماة اكتساب الرسالة ونقل التحديث) (كامران وآخرون، ١٣٩٢: ٧٣).

٤. النتائج

توضح هذه الدراسة أن المدارس والخانقاهات الصلاحية كانت جزءاً واضحاً من سياسات صلاح الدين الأيوبي الكبرى لتعميم المذهب السني والأشعري في بلاد الشام والقدس. كانت هذه المؤسسات فعالة في زيادة الشرعية السياسية للحكم الأيوبي من خلال التكامل الفكري والديني وخلق طبقة من النخب تمشياً مع الحكومة والسيادة. كان صراع صلاح الدين الجهادي مع الصليبيين، والذي أنفق عليه جزءاً مهماً من سياساته وسلطته، دافعاً مهماً آخر لإضفاء الطابع المؤسسي على قوة المدارس والخانقاهات لتحفيز الدوافع الجهادية. من الوظائف المهمة الأخرى لهذه المؤسسات يمكن الإشارة إلى التطورات الدينية للمدارس والخانقاهات في الانسجام الديني للمجتمع لصالح أهل السنة وأتباع الكلام الأشعري.

بالإضافة إلى التماشي مع سياسات الأيوبيين، ينبغي النظر إلى ظهور المدارس والخانقاهات الصلاحية كجزء من عملية عقلانية لتوسيع التأثيرات الثقافية والحضارية للمدرسة والخانقاه، والتي امتدت من الأراضي الشرقية إلى الغرب من العالم الإسلامي وظهرت بعد إيران والعراق أثناء العهد الغزنوي والسلجوقي في الشام في العهد الزنكي، وفي عهد صلاح الدين خلال فترة حكمه، انتشرت في مصر ومنها إلى أفريقيا والمغرب.

كانت من بين السمات البارزة للمؤسسات الصلاحية الصلة القوية بين مؤسسة المدارس والخانقاه أو الفقه والطريقة، والتي لم تكن أمثلتها كثيرة في العصور الإسلامية، بل والعكس، تدل بعض الشواهد التاريخية على صراع الطبقات الناشئة عن هاتين المؤسستين في التاريخ الثقافي للإسلام.

المصادر و المراجع

الكتب

- ابن حجر عسقلاني، احمد بن علي (ق ١٣٩٢م/١٩٧٢)، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، به كوشش محمد عبدالمعديخان، (د.ط)، حيدرآباد دكن: مطبعة مجلس دائره المعارف العثمانية.
- ابن جبير، محمد بن احمد (١٤٠٤ق/١٩٨٤)، رحله ابن جبير، (د.ط)، بيروت: دار بيروت.
- ابن جبير، محمد بن احمد (١٣٧٠ش)، سفرنامه ابن جبير، مترجم پرويز اتابكي، ج ١، مشهد: آستان قدس رضوي.
- ابن خلدون (١٣٨٤ش)، العبر: تاريخ ابن خلدون، ترجمه عبدالحميد آيتي، ج ١، تهران: پژوهشگاه علوم انساني و مطالعات فرهنگي.
- ابن شداد، بهاء الدين (١٩٦٤ م)، النوادر السلطانيه والمحاسن اليوسفيه، تحقيق چاپ جمال الدين شيال، ط ١، قاهره: الدار المصريه للتأليف و الترجمة.
- ابن كثير، اسماعيل بن عمر (د.ت)، البدايه و النهايه، ط ١، بيروت: دار المعارف.
- ابن واصل، محمد بن سالم (١٣٨٣ش)، تاريخ ايوبيان(مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، ترجمه پرويز اتابكي، ج ١، تهران: علمي و فرهنگي.
- ابوالفداء، اسماعيل بن علي (١٣٢٥ق)، المختصر في تاريخ البشر، (د. ط)، قاهره: (د.ن).
- پورجوادی، نصراله (١٣٨٨ش)، تصوف، ج ١، تهران: كتاب مرجع.

ظهور المؤسسات الصلاحية التابعة للأيوبيين (المدارس والخانقاهات) في بلاد الشام ومصر ٤٩

عبدالرحمان بن حسن جبرتي (د.ت)، تاريخ عجائب الآثار في التراجم و الاخبار، (د.ط)، بيروت: دارالجيل.

عبدالوهاب، حسن (١٩٤٦م)، التاريخ المساجد الاثرية، (د.ط)، قاهره: (د.ن).

چيتيك، وليم (١٣٨٨ش)، درآمدى بر تصوف و عرفان اسلامى، ترجمه جليل پروين، چ ١، تهران: حكمت.

حاجى خليفه، مصطفى بن عبدالله (١٤٠٢ق)، كشف الظنون عن أسامى كتب والفنون، (د.ط)، بيروت: دارالفكر.

جتى، فيليب خورى (١٣٨٠ش)، تاريخ عرب، ترجمه ابوالقاسم پاينده، چ ٣، تهران: آكه.

حنبلى، مجيرالدين (١٩٦٦ م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، (د. ط)، نجف: المكتبة الحيدرية.

خضرى، سيداحمدرضا (١٣٧٧ش)، علل و عوامل تجزيه خلافت عباسى، چ ١، تهران: غدیر خم.

دجاني، برهان (١٩٩٤ م)، الصراع الإسلامى - الفرنجى على فلسطين فى قرون الوسطى، (د. ط)، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

دعكور، عرب (٢٠٠٦)، الدولة الأيوبية: تاريخها السياسى والحضارى، ط ١، بيروت: دارالمواسم.

ذهبي، محمد بن احمد (١٩٤٨م)، العبر فى خبر من غير، تحقيق صلاح الدين منجد، (د. ط)، كويت: مطبعة حكومة الكويت.

رمضان، عبدالعظيم (١٩٩٣ م)، تأريخ المدارس فى مصر الإسلاميه، ط ١، قاهره: هيئت المصرية العامه للكتاب.

زركلى، خير الدين (١٣٩٦ق)، الاعلام قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، (د. ط)، بيروت: دارالعلم للملايين.

سخاوى، محمد بن عبدالرحمان (د.ت)، التبر المسبوك فى ذيل السلوك، (د. ط)، قاهره: مكتبة الكليات الأزهرية.

سيوطى، عبدالرحمان (١٩٦٧م)، حسن المحاضر، چاپ محمد ابوالفضل ابراهيم، ط ١، بيروت: دارالكتب العربية.

سبكي، عبدالوهاب بن على (١٩٩٢م)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبدالفتاح الحلو ومحمود الطناحى، ط ١، جيزه: هجر للطباعة و النشر.

شلبى، أحمد (١٣٨٧ش)، تاريخ آموزش در اسلام: از آغاز تا فروپاشى ايوبيان در مصر، ترجمه محمد حسين ساكت، چ ١، تهران: نگاه معاصر.

طارق، على (١٣٨٥ش)، صلاح الدين نامه، ترجمه سهيل سمى، چ ١، تهران: ققنوس.

عبدالمهدى، عبدالجميل حسن (١٩٨١م)، المدارس فى بيت المقدس، ط ١، اردن - عمان: مكتبة الأفضى.

۵۰ آفاق الحضارة الإسلامية، السنة ۲۲، العدد ۲، خريف وشتاء ۱۴۴۰ هـ. ق

عتبی، أبونصر محمد بن عبدالجبار (۱۴۲۴)، الیمینی، چاپ احسان ذنون الثامری، ط ۱، بیروت: دارالطلیعة.

عدلی، محمدرضا (۱۳۹۲)، «خانقاه»، دایره المعارف بزرگ اسلامی، ج ۱، تهران: دایره المعارف بزرگ اسلامی، ۷۳۴-۷۱۸/۲۱.

عسلی، کامل جمیل (۱۹۸۱م)، معاهد العلم فی بیت المقدس، ط ۱، اردن-عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية.

عمادالدین کاتب اصفهانی (۲۰۰۴م)، فتح القسی فی فتح القدسی، ط ۱، ریاض: دارالمنار.

غنیمه، عبدالرحیم (۱۳۷۷ش)، تاریخ دانشگاه های بزرگ اسلامی، ترجمه نوراله کسائی، ج ۳، تهران: دانشگاه تهران.

فارسی (۱۴۰۳ق)، الحلقه الأولى من تاریخ نيسابور المنتخب من السياق، تحقیق محمد کاظم محمودی، ط ۱، قم: جماعه المدرسين فی الحوزه العلمیه.

قلّشندی، احمدبن علی (د.ت)، صبح الأعشى فی صناعة الإنشاء، (د. ط)، قاهره: المؤسسة المصریه العامه للتألیف والترجمه والطباعة والنشر.

غنیمه، عبدالرحیم (۱۳۷۷ش)، مقدمه ای بر کتاب تاریخ دانشگاه های بزرگ اسلامی، ترجمه نوراله کسائی، ج ۳، تهران: دانشگاه تهران.

کیانی، محسن (۱۳۶۹ش)، تاریخ خانقاه در ایران، ج ۱، تهران: کتابخانه طهوری.

گرابار، اولگ (۱۳۷۹ش)، شکل گیری هنر اسلامی، ترجمه مهرداد وحدتی دانشمند، ج ۱، تهران: پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی.

مقریزی (د.ت)، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعه الجديدة بالأفست، بیروت: دارصادر.

نعیمی، عبدالقادر بن محمد دمشقی (۱۹۴۸م)، المدارس فی تأریخ المدارس، تحقیق جعفر الحسنی، ط ۱، دمشق: مطبوعات الجمع العلمی العربی.

Makdisi, George (1981), *the Rise of Colleges*, 1st Publish, Edinburgh: Edinburgh University Press.

Thubron, Colin (1969), *Jerusalem*, 1st Publish, London: Penguin Books.

ب) الدوريات

آرمین دخت، امین و فاطمه جان احمدی و رضا شعبانی (۱۳۹۵ش) «مطالعه تطبیقی مکان گزینی دو پایتخت شیعی در قرن چهارم هجری: شیراز بویه و حلب حمدانی»، پژوهش نامه تاریخ های محلی ایران، ت ۴، ش ۲، صص ۱۳۹-۱۵۵.

ظهور المؤسسات الصلاحية التابعة للأيوبيين (المدارس والخانقاهات) في بلاد الشام ومصر ٥١

امیری، زهرا (پاییز ۱۳۹۲ش)، «سیاست خواجه نظام‌الملک در تاسیس مدارس نظامیه»، *تاریخ پژوهشی*، ش ۵۶، صص ۱-۲۲.

حاج اسماعیلی، محمدرضا و حبیب الهی، مهدی (بهار ۱۳۹۱ش)، «بررسی و تحلیل اخلاق جنگ در قرآن و حدیث»، *پژوهشنامه اخلاق*، ش ۱۵، صص ۳۱-۵۶.

حقیقی، محمود (تابستان ۱۳۷۴ش)، «بررسی کتابخانه‌های مدارس و دانشگاه‌های قلمرو تمدن اسلامی و مقایسه آنها با کتابخانه‌های دانشگاهی اروپا در قرون وسطی»، *مشکوه*، ش ۴۷، صص ۵۰-۵۸.

حمویه جوینی، سعدالدین (۱۳۶۷ش)، «قلب المنقلب، با مقدمه و تصحیح نجیب مایل هروی»، *معارف*، سری ۵، ش ۲، صص ۸۸-۱۲۰.

حسروشیری، علی و مصطفی جوان (۱۳۸۸ش)، «ایران پس از انقلاب اسلامی و حزب الله لبنان: تأثیرات و پیامدها»، *مطالعات راهبردی بسیج*، ش ۴۲، صص ۹۳-۱۲۸.

زمانی محبوب، حبیب و احمد بادکوبه هزاوه (۱۳۹۱ش)، «بررسی وضعیت شیعیان در حلب عهد بنی مرداس»، *مطالعات تاریخ اسلام*، س ۴، ش ۱۴، صص ۹۳-۱۱۰.

فیرحی، داوود (۱۳۸۷ش)، «مفهوم جنگ و اخلاق نظامی در اسلام شیعی»، *فصلنامه سیاست* (دانشکده حقوق و علوم سیاسی دانشگاه تهران)، ش ۵، صص ۱۳۱-۱۶۰.

کامران، حسن؛ اشین متقی، فاطمه میراحمدی، بهادر غلامی (تابستان ۱۳۹۲ش)، «تأثیر انقلاب اسلامی ایران بر شیعیان پاکستان بر اساس نظریه پخش»، *جغرافیا*، ش ۳۷، صص ۷۱-۹۶.

کسائی، نوراله (بهار ۱۳۷۳ش)، «صعود و رکود علم و فرهنگ در تمدن اسلامی»، *نامه فرهنگ*، ش ۱۳، صص ۱۴۰-۱۴۹.

محمود اوغلی، رضا (بهار و تابستان ۱۳۹۵ش)، «انقلاب اسلامی ایران و مؤلفه‌های تأثیرگذار منطقه ای آن»، *مطالعات بیداری اسلامی*، س ۵، ش ۹، صص ۴۵-۶۵.

نقیسی، سعید (۱۳۴۲ش)، «احوال بزرگان: سعدالدین حمویه»، *یادگار*، سری ۱، ش ۱۰، صص ۳۵-۵۰.

Leiser, Gary (1985), "The Madrasah and the Islamization of the Middle East: the Case of Egypt", in *Journal of the American Research Center in Egypt*, Vol. XXII, P. 29-47.

Leiser, Gary (1986), "Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society" in *the Muslim World*, V. LXXXVI, No. 1, P. 16-23.

Tamari, Sh. (1968), "Sulla Conversione della Chiesa di Sant Anna a Gerusalemme nella Madrasa as – Salahiyya", in RSO, XLIII, **Roma**, P. 327 ff.